اهتمامات الرحّالة المغاربة بمخطوطات الصحراء الجزائرية خلال القرنين 11 و12هـ

الأستاذ: أحمد بوسعيد

جامعة أدرار

المقدمة:

ظلّت الصحراء الجزائرية مُلهمةً لزائريها من العرب والعجم قروناً عديدة، ذلك لأنها نجحت في محو الصور النمطية العالقة في الأذهان عنها، كونها قفاراً خالية وبراري موحِشة. وإذْ تمّ ذلك فإنما بفضل الحركية العلمية التي وسِعتْ أرجاءها، والمنافسة الفكرية بين أعلامها تأليفاً ونسخاً، فتنوّعت الكتابات وتعدّدت التصانيف والمخطوطات، وقد شهد على ذلك القاصِدون الحالّون والرحّالة العابرون.

ولم يكن لتلك النسخ والمخطوطات أن تتوارى عن الأنظار دون أنْ تثير فضول الرحّالة المغاربة المتنقلين عبر المدن الجزائرية في رحلاتهم الحجية أو العلمية، فأظهَروا اندهاشهم وشغفَهم بما حوَتْ، وأبانوا عن عزمهم الإفادةَ من تلك الصحائف وما طوَتْ. فهذا العياشي في رحلته الكبرى سنة 1072هـ/1661م يُعرب عن إعجابه بما عاينَه من أمّهات الكتب والمصادر القيّمة والنسخ النادرة، حين ارتحلَ عن تكورارين قاصداً القُليعة (المنيعة)، من ذلك سفرٌ من نوازل البرزلي بخط الإمام ابن مرزوق، وإجازات لبعض السادات القادرية بخط مشرقي أصلي، فضلاً عن كتب العالم محمد بن إسماعيل المتوفى سنة 1064هـ/1654م بتقورارين، والتي بلغت قريباً من ألف وخمسمائة تأليف، نُقل منها إلى المدينة المنورة نحو من مائة وسبعين سفراً نزولاً عند وصيته، ولا شكّ أن بعضها قد توزّع على المناطق التي عبَرتها تلك القافلة.

والأمر ذاته أثار اهتمام الشيخ أبي العباس أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته سنة 1121هـ/1709م، وهو في طريقه إلى منطقة بوسمغون، فقد أُعجب بخزائن مخطوطاتها، وقام بنسخ بعضها، واصفاً إيّاها بأنها كتب غريبة، وهي إلى الإندثار قريبة. أمّا مدينة بسكرة فقد اتفقت الآراء على أنها موطن العلم والعلماء، فلا تخلو دورها من كتب الفقه واللغة والسيرة

والتاريخ والفلك ونحوها، وقد أشار الدرعي إلى ذلك في رحلته المذكورة، واصفاً بسكرة بأنّ فيها علماً كثيراً، وأنّ أهلها على مذهب أهل المدينة. وعلى خطى العياشي والدرعي سار رحّالة مغاربة آخرون، تحدثوا في رحلاتهم . الحجازية وغيرها . عن الواقع العلمي المضيء للحواضر الجزائرية الصحراوية، وما اشتملتْ عليه خزائنها من مخطوطات وكتب قيّمة، ألَجأَتْ بعضهم إلى "تعليق" رحلته مؤقتاً، واكتراء من يمدّهم بنسخ منها، نذكر منهم القيسي وابن أبي مَحَلّي والهلالي والزياني وابن الطيب الشرقي وغيرهم.

تلك النماذج من الرحلات وما أثارته لدى أصحابها من اهتمامات بمخطوطات الصحراء الجزائرية، تسعى هذه المداخلة المتواضعة إلى أنْ تجلّيَها وتستقرئ دوافعها وأبعادها، من خلال محاولة الإجابة على الإشكال التالي: ماهي مظاهر اهتمامات الرحّالة المغاربة بالمخطوطات الجزائرية؟ وما مردّ ذلك؟ وما مدلولات تركّز أهمّها في جهات ومناطق بعينها دون سواها؟ وكيف أسهمت تلك المخطوطات في إثراء النهضة الفكرية والثقافية للحواضر والمراكز العلمية بالصحراء الجزائرية وما جاورها؟

01 . مرجعيات ودوافع النسخ والتأليف في الأقاليم الصحراوية:

من المفارقات الغريبة أنْ توسمَ فترة العهد العثماني في الجزائر (1518م/1830م) بمحدودية العطاء الثقافي، وندرة الاستثمار فيه غالباً، ثمّ نجد منطقة الجنوب الجزائري تصنع بعض الاستثناء[1]، رغم الظروف الطبيعية القاسية، والمسافات المتباعدة بين القرى النائية. إذْ أنَّ حركة التأليف والنسخ قد وجدت لها صدى في الحواضر والقصور الصحراوية، فلم تخْلُ معظمُ مدارسها أو زواياها من تصانيف وتآليف تُنسب إلى ذوي العلم والمعرفة. حتى أنّ الصلة والتهادي بين الأعلام والشخصيات الفكرية كانت تجدُ عزاءَها حين تنقطع في ما يتبادلونه بينهم من كتب ونسخ قيّمة، متمثّلين قول الشاعر:

إذَا الأَحبابُ فانَهمُ التَّلاقِي فَمَا صِلةٌ بأفضَلَ مِن كِتابِ

[1]– أشار المرحوم أبو القاسم سعد الله إلى ذلك الاستثناء، وخصّ بالذكر منطقة توات التي وصف أهلها بأنّهم "..قد اهتموا بتاريخ بلادهم، فكتبوا في مناقب أهلها وتواريخها وتجارتها وحياتها العلمية".
يُنظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 02، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1998م، ص 349.

ولا شكّ أنّ تلك الحركة العلمية في أرجاء الصحراء المترامية، والتي أسهمتْ في تشكُّلِ هذا الزخم من المخطوطات والمنسوخات، ما كانت لتنبعثَ من عدم، بل كانت نتيجة عوامل ودوافع داخلية متعددة، تقاطعت مع التأثيرات الخارجية المتوالية، نذكر منها ما يلي:

أ . عامل ديني فقهي:

يتجسّد في كثرة الإجازات الكتابية والأسانيد الفقهية التي كان الطلبة والعلماء يحرصون على تحصيلها، وفي الفتاوى والنوازل التي كان يبعث بها السكان إلى الفقهاء. فقد ذكر العياشي في رحلته الحجية سنة 1072هـ/1661م أنّ رجلاً ممّن ينتحل الفقه ببلاد أوكروت وجّه إلى الركب بسؤالين أحدهما في نازلة من الأحباس والآخر في نازلة من البيوع، وألزَمَه بالكتابة على الأخيرة منهما، وأنّه لما كتب الجواب على النازلة المذكورة، ذهب به المستفتي إلى القاضي ليضع خطّه فيه بالصحيح، فأبى القاضي وأخبر العياشي بأنّه تلقى سؤالاً مغايراً، ولا يُحبّ أن يوجد خطّه في سؤالين متناقضين في نازلة واحدة[1]. يتضح من خلال ذلك الحرص على وضع الخط والكتابة من قِبَل الجميع، وهو نموذج مستنسَخ في ربوع الصحراء.

كما كانت لبعض الرحّالة المغاربة اتصالات وثيقة مراسلةً وكتابةً مع أعلام الصحراء وفقهائها، سواء في رحلاتهم الحجية أو العلمية. إذ أشار العياشي في رحلته المذكورة إلى أنّهم قصدوا سيدي محمد الأوكروتي[2]، بعدما تواترت الأخبار بصلاحه وفقهه، ولمّا وقفوا بباب داره كتب إليه العياشي بيتين هما:

بِبابِكَ قومٌ يطلبون زيارةً ... لِكيْمَا ينالُوا دعوةً منكَ رابِحَة
أَحبُّوكَ لا عنْ رؤيةٍ قدْ تقدَّمتْ ... ولكِنْ لأخبارٍ أتَتْ عنكَ صالِحَة

[1]– أبو سالم العياشي: الرحلة العياشية (ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ج 01، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي: 2006 م، ص83.

[2]– **الأوكروتي** نسبة إلى أوكروت (دائرة أوقروت حالياً بولاية أدرار) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أبي بكر، لهُ الخبر ببعض فروع الفقه، أخذ الطريقة على والده، عن سيدي عبد الله الحجام، عن سيدي عمر الخطاب، كلاهما دفين زرهون، عن الشيخ التباع.
يُنظر: محمد حجي: موسوعة أعلام المغرب، ج 04، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1996م، ص 1495.

ولا شكّ في أنّ لذلك الشيخ صيتاً سائداً في بلده والبلدان المجاورة، وإلاّ لَمَا طلب منه الرحالة النصحَ والدعاء. وقد ودّعهم قائلاً[1]" معرفة الله كنز، ومعرفة أحكامه طريق **إلى ذلك الكنز، فمن مات قبل الوصول إلى معرفة الله فقد مات في الطريق ولم يصل إلى الكنز** ".

أمّا الرحّالة أحمد ابن أبي محلّي السجلماسي الفقيه الثائر، الذي خرجَ على السلطان السعدي زيدان ابن أحمد المنصور الذهبي سنة 1019هـ/1610م[2]، فقد اشتهر بوفرة تآليفه الفقهية والفكرية، حيث أنتجَ حوالي ألف ورقة في أقل من خمس سنوات، وذلك بعد رجوعه من الحجة الأولى وانعزاله بمنطقة واد الساورة بدءاً من سنة 1002هـ/1594م، فضلاً عن الرسائل الكثيرة الواردة إلى منطقة الساورة، والتي تدور مواضيعها حول اعتراف بعض العلماء له بالقطبانية وبأنّه " شمس زمانه "، أو المطالبة بالانخراط في سلكه، أو طلب سبيحة من يده، أو شاشية من فوق رأسه كي تحصلَ البركة..![3].

واشتهر ابن أبي محلّي كذلك بتواصله مع علماء إقليم توات بالجنوب الغربي الجزائري، من خلال الفتاوى والتساؤلات التي كانوا يبعثون بها إليه ويردّ عليها، ومنها جوابه على القاضي محمد عبد الله بن عبد الكريم القراري، قاضي تقورارين (نواحي تيميمون حالياً)، بخصوص مسألة في المعرفة بالله، وقد توزّع الجواب على سبعَ عشْرةَ ورقة، افتتحها بقوله "الحمد لله الذي طهّر قلوب أوليائه من دنَس الجحد ودرَن الكفران.."، وختمَها . متواضعاً . بقوله "وإذا انتهى إليكم هذا المكتوب اليسير فأَنبِئونا..ورُبَّ معيدي تسمع به خير من أن تراه.."[4]. واستخدامه لمفردات مثل: اليسير، أنبئونا... تُحيلنا إلى توقّع حجمٍ أكبر من المراسلات المخطوطة، في هذه المناطق من الصحراء الجزائرية خلال الفترة المدروسة.

وهناك دافع آخر لا يمكن تجاوزُه، وهو تعوّدُ سكان الحواضر الصحراوية على استقبال الحجاج المغاربة وإكرامُ وِفادتهم، وما كان يدور بينهم من مكاتبات طلباً للفتوى، وقطعاً لدابر الخِلاف في المسائل الفقهية. حيث امتدّت الظاهرة إلى مناطق الجنوب الشرقي الجزائري، ففي مدينة تكرت (تقرت) التقى العياشي بنَفرٍ ممن شدُوا طرفاً من الفقه والنحو وعلم العروض، فسألوه

---

[1]– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 84.

[2]– يُنظر ترجمة ابن أبي محلّي وتفاصيل ثورته على السلطان السعدي زيدان في:

عبد المجيد القدوري: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط: 1991م، ص ص 37 – 51.

[3]– عبد المجيد القدوري، المرجع السابق، ص 45.

[4]– توجد نسخة واضحة من هذا المخطوط قوبلت من نسخةٍ بخط المؤلّف في خزانة سيدي أحمد ديدي البكرية بتمنطيط، أدرار.

عن مسائل كثيرة في رواية الحديث والمقامة الحريرية، فكتبَ لهم في معاني ذلك، وفككَ لهم ما سألوا عنه[1].

وهكذا نجد أنّ الحركية العلمية التي كان سببها مزاحمة الطلبة للعلماء والرحالة المغاربة في رِكابهم بالرُّكَب، وكثرة المراسلات والمكاتبات فيما بينهم، مثَّلتْ رافداً هاما في مجرى المصنّفات الناشئة، والمعارف المخطوطة، والتي احتضنت معظمَها الخزائنُ والزوايا التي وردت أسماؤها في رحلات المغاربة، على غرار زاوية سيدي أحمد بن موسى، وزاوية سيدي عبد الله ابن طمطم، وزاوية سيدي محمد عمر الأوكروتي، وزاوية سيدي الشيخ، وزاوية سيدي خالد، وزاوية الحجاج ببسكرة وغيرها. تلكم المَواطن التي ازدان ضياؤها وازداد عطاؤها بوجود أعلامٍ وعلماء كُثر، صادف الرحالة المغربي ابن مليح القيسي في صحراء الجزائر بعضاً منهم، في رحلته سنة 1040هـ/1630م، فقال بلسان الحال[2]:

عَبقتْ بنشرِ هَواهمُ رِيحُ الصَّبَا ... وإلى شَذَاهُمْ كلُّ قلبٍ قدْ صَبا

قومٌ إذا نزَلوا بِوادٍ مُجدبٍ ... قَفرٍ تأرّجَ بالعَبيرِ وأعْشبَا

هُمْ أولياءُ اللهِ حقاً في الوَرى ... ولهمْ يقالُ غداً جهاراً مرحبَا

ب . عامل سياسي:

رغم ما يُثار وما يُقال عن عدم تشجيع العثمانيين الأتراك لحركة التأليف والنسخ بالجزائر في هذه الفترة الهامة من تاريخها، إلاّ أنّ بعض المناطق الصحراوية غير الخاضعة لسلطة الأتراك خالفتْ ذلك الاعتقاد، فاستغلّت تلك الاستقلالية الذاتية في سبيل التميّز الثقافي، من خلال رعاية طلبة العلم في الزوايا، ومجالسة العلماء وتشجيعهم على الكتابة والتأليف. فقد اعتنى "علاهُم" أميرُ منطقة واركلا (ورقلة) بجمع الكتب والمخطوطات، وامتلكَ خزانة كبيرة منها، ولم يكن يمنع أحداً ممّن أراد الدخول إليها[3]، وهذا أمير تكرت . وهو من أولاد الشيخ أحمد بن جلاب المريني . لا يقدم على أمر إلاّ بعد سؤال الفقهاء، وأخوه يُحسِن طرفاً من الفقه ويجالس الفقهاء[4].

وفي منطقة توات تبوّأ الفقهاء مكانة إدارية وسياسية سامية، إذْ قامتْ جماعة عدول العلماء مقام السلطان، فتعدّدت المدارس والزوايا العلمية، في تنيلان وتيمي وزاوية الرقادي..، واشتهرت بصفة خاصة حاضرةُ تمنطيط بكثرة علمائها وقضاتها من عائلة البكري، التي تنافسَ أعلامُها

[1]– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 120.

[2]– أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي (ابن مليح): أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعاريب، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس: 1970م، ص 29.

[3]– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 117.

[4]– المصدر نفسه، ص 122.

أيّما تنافُس في مجال التأليف والتصنيف بعد استقرارهم بالمنطقة، يقول في ذلك الشيخ الإدريسي[1]" ولما أجلى الله اليهود عن أرض توات، صار مركز إشعاع للعلم والمعرفة واقتباس الهدى والفصل بين الناس بالحق والعدل، عندما استقرّ به أولاد الولي الصالح والقطب الفاتح سيدي محمد البكري ...".

ج . عامل اقتصادي:

مردّ هذا الدافع هو خصوصية المناطق الصحراوية في مجالي الزراعة والتجارة بصفة خاصة، فقد كثرتْ الوثائق التي كان يحوزها أصحابها كضمان لملكية العقار، والنوازل[2] التي كانت تثيرها مشاكل استغلال الأراضي الزراعية المعروفة في الواحات الصحراوية بالجنانات أوالأجنة، و"الزمامات" الموثقة المكتوبة، وهي عقود تبيّن نصيب كلّ شخص ومساهمته في ماء الفقّارة[3]. دون أن ننسى البُعد التجاري للمنطقة، فقد كانت حواضر الصحراء محطات تجارية رئيسية، ومراكز عبور تصلُ الجزائر وبلاد المغرب عامة بمدن السودان الغربي وأفريقيا، وكانت المراسلات والطلبات المخطوطة ذات الطابع التجاري أوالغرَض العلمي الثقافي تُرافقُ القوافل في غدوّها ورواحها بين جانبي الصحراء[4].

د . عامل اجتماعي:

يدخل هذا العامل في إطار الخصوصيات الاجتماعية التي ميّزت الأسَر العلمية العريقة والبيوتات الصحراوية العتيقة، فقد حرصتْ على أن يتوارث أفرادها خزائن مخطوطاتها ومكتبات رسائلها كابراً عن كابِر، وأنْ يسعوا ما استطاعوا إلى صيانته وصونه من عوادي الدّهر وتقلبات العصر. والأمثلة عن تلك الأسر العلمية كثيرة لا يسَعُ المقالُ لذكرها، وحسْبُنا منها ما جاء في رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي سنة 1150هـ/1737م، مبيّناً توارث الكتب بين الأجيال

---

[1]– مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، ط 02، مداد للطباعة والنشر، غارداية: 2012م، ص 103.

[2]– أشار العديد من الرحالة المغاربة مثل العياشي إلى النوازل التي كانت تردُ عليهم، والمتعلقة بالجانب الزراعي (أراضٍ، مياه، غلّة...).

[3]– الفقّارة من الفُقُر والفقاقير، وهي آبار تُحفَر وينفُذ بعضها إلى بعض.

ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج 05، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ص 3446 .

[4]– يُنظر المزيد حول المراسلات الكتابية متنوعة الأغراض بين جانبي الصحراء في:

أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء ، ط 01، مراجعة وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرّامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس: 1999م.

قائلاً[1]"...ولقينا أحفادهم، وأدخلونا خزانة كتب أسلافهم فرأيناها، وتبركنا بها، وهي خزانة عظيمة، اشتملت على كثيرٍ من تآليف الأقدمين المهمة في كثير من الفنون "، والمثال قياس في بقية الخزائن والمكتبات الخاصة.

02 . مسارات الرحّالة المغاربة بحواضر الصحراء الجزائرية:

تبيّن الرحلات الحجية النموذجية المختارة في هذه الورقة المسارات المتباينة التي سلكها الرحالة المغاربة، وهي مسارات أفقية متوازية، تقطع الصحراء الجزائرية من غربها إلى شرقها[2]، وتُلامس أهمّ المدن والأقاليم ذائعة الصيت خلال القرنين 11 و12 للهجرة، ويمكن تصنيفها كما يلي:

* طريق علوية سهبية تمرّ تِباعاً بمدن: القنادسة . فجيج (قرب بني ونيف) . بوسمغون . الغاسول . عين ماضي . الأغواط . سيدي عقبة . بسكرة. الزرايب. وهو مسار رحلة ابن أبي محلي والهلالي، وكذلك ابن ناصر الدرعي في رحلته سنة 1121هـ/1709م، لكنّه ومن معه نكّبوا تلك الطريق في حجة سابقة، ومالوا ذات اليمين مع دليلٍ من أولاد سيد الشيخ، وذلك بسبب شدة بردها وكثرة ثلجها ورياحها[3].

* طريق صحراوية وسطى يتخذها الرحالة المنطلقون من سجلماسة (تافلالت) جنوب المغرب الأقصى، حيث تعبر: إقلي . بني عباس . بني يخلف . زاوية كرزاز . تسابت (شمال توات) . أوكرُت . القليعة (المنيعة) . واركلا . تكرت . سوف. وقد اشتهرت هذه الطريق ومحطاتها بفضل ما دوّنَه العالم الرحالة أبو سالم العياشي في رحلته سنة 1072هـ/1661م. أمّا ابنُ أبي محلي السجلماسي في رحلته سنة 1014هـ/1605م، فاعتبرها أكثر أمناً ودعَةً من الطريق العلوية السهبية، التي وسمَها بِطَريق الصعاليك والمتاعب[4].

* طريق صحراوية سفلى تتقاطع مع سابقتها في المقاطع الأولى، ثمّ تنفصل عنها بعد دخول إقليم توات، حيث تميل جنوباً نحو منطقتي آقبلي وعين صالح، ثمّ براري وأودية موحشة، وصولاً إلى فزّان الليبية، وكانت مساراً لابن مليح القيسي في رحلته سنة 1040هـ/1630م[5].

03 . آراء الرحالة في طبيعة العلوم والمصنّفات المُطّلَع عليها:

---

[1]– أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة: 2012م، ص 148.

[2]– يُنظر الخرائط المرفقة في الملاحق في آخر هذه الورقة.

[3]– أحمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم: 1954، ص 19.

[4]– عبد المجيد القدوري، المرجع السابق، ص 94.

[5]– من الرحّالة الجزائريين الذين عبَروا هذه الطريق عبد الرحمان بن عمر التنلاني، في رحلته الحجية لسنة 1188هـ/1774م.

أثارت المخطوطات والتصانيف الموزعة على عشرات الخزائن والمكتبات بالصحراء فضولَ واهتمام الرحالة المغاربة، فراحوا يعبّرون عن ذلك في كتاباتهم ومسودّاتهم، مندهشين من كميتها تارة، ومن نوعيتها وتميّزها تارة أخرى، وفي ما يلي نماذج عن تلك الاهتمامات وردود الأفعال:

أ . مخطوطات واد الساورة في عيون الرحالة:

لقد كانت تلك الجهات أول منافذ الرحالة المغاربة، واستطاعتْ استقطابهم بما حوَتْهُ خزائنُها من مؤلفات قيّمة، ولا غروَ في ذلك، فقد اشتهرت سابقاً بكثرة المراسلات والمكاتبات بين أقطابها وعلمائها، منها مثلاً ما دارَ بين الشيخين ابن أبي محلي السجلماسي وعبد القادر بوسماحة من ملاسنات حادة، ورسائل عتاب وقدح متبادلة، كانت مضامينها حول الولاية والتصوّف السني والتصوف البدعي[1].

وبما أنّ زاوية القنادسة (بشار) في مستهلّ المسار، فقد استهوَتْ خزانةُ كتبها أبا العباس الهلالي السجلماسي سنة 1150هـ/1737م ، وبالغَ رئيس الزاوية القندوسية أبو عبد الله سيدي مُحمد بن مْحمد بن أبي زيان في إكرامه حين دعاهُ إلى دخولها، يقول الهلالي عن ذلك[2]"..وأدخلاني خزانة الكتب، فظللتُ بها وبتُّ، ورأيت بها من الكتب جملة مرغوباً فيها، منبئة باعتناء جامعها ومقتنيها، منها: الاقتضاب لابن السيد البطليوسي، وحسن المحاضرة وكذا الإتقان للسيوطي، وشرح الواحدي على ديوان المتنبي، وكتاب في هيئة السماء والأرض وكيفية تكوّن الحيوان والنبات للقزويني، وشرح دلائل الخيرات لأحمد بن أبي بكر الفجيجي بخط يده..". وهي مؤلفات متنوعة، ليست مقصورة على الجانب الفقهي فقط كما سادَ الاعتقاد.

وغير بعيد عن القنادسة جلَبتْ خزائن بني عباس وزاوية أحمد بن موسى بكرزاز الاهتمام، حيث استذكرَ العياشي في رحلته 1072هـ/1661م ماضيَ ابن أبي محلي السجلماسي في المنطقة، إذ يقول[3]"..ونزلنا قرى بني عباس، وهي ثلاث قرى متصلة في جبل صغير..وفي أحد قراها كان سيدي أحمد بن عبد الله ابن أبي محلي القائم فيما مضى، ومنها كان ابتداء أمره وقيامه، وداره الآن معروفة".

ب . قصة مكتبة محمد بن اسماعيل المسناوي بتيقورارين:

---

[1]– يُنظر تفاصيل ذلك الصراع بين الشيخين ابن أبي محلي وبوسماحة، وهل هو صراع عقائدي؟ أم صراع من أجل الزعامة؟ في: عبد المجيد القدوري، المرجع السابق، ص 46 وما بعدها.

[2]– أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص 138.

[3]– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 76.

تُعتبر قُرى تسابِت (تسابيت بأدرار) أول عمالة توات شمالاً، يصلها الرحالة بعدما يقطعون الفيافي والحمادات، ويلقون الظمأ والمشقات، فيقيمون بها أياماً للراحة وصرف الذهب والتزود بالقوت. وقد زعمَ العياشي أنّه لم يلقَ هناك أحداً ممن ينتسب إلى ولاية أو صلاح، ولا من أهل العلم والفلاح[1]، وبأنّ خطيب الجمعة سردَ خطبة عظيمة وعظية حسنة تلقفها من صحيفة، لكنه أقرّ بأنّ هذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تنبكتو ومن أطراف السودان[2]. وغير بعيد عنها دأبَ الرحالة على زيارة قرى الدغامشة (في طريق أوكروت)، حيث زاوية سيدي عبد الله بن طمطم وما احتوت عليه من كتب وتآليف.

لكنّ أثمنَ مكسب علمي ظفرت به منطقة أوكروت . في نظر الهلالي والعياشي معاً . هو تشكّل ذلك الكمّ الهائل من الكتب والمخطوطات المنسوبة إلى العالم الرحّالة محمد بن إسماعيل المسناوي القوراري (ت 1064هـ/1654م)[3]، والتي فاقتْ ألفاً وخمسمائة تأليف، وصلَ منها إلى المدينة المنورة نحو من مائة وسبعين سفراً، كان أوصى بها لخادم الروضة النبوية، وهي كتب نفيسة جداً . على رأي العياشي . لكنّ كثيراً منها ضاع في الطريق، وتوزّع على المدن المجاورة مثل القليعة (المنيعة حالياً)[4].

وكان المسناوي القوراري قد جمع معظم تلك الكتب والمخطوطات من اسطنبول حاضرة الخلافة العثمانية، بفضل الوزير الأعظم الذي سبَقَ وأن التقى به في بغداد عند ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني قبل توليه الوزارة، فطلب منه الدعاء ووعده بتحقيق رغبته، فدعا له بالتمكين. ولما لَقيه في اسطنبول . وقد تقلّد الوزارة . طلبَ منه المساعدة في تحصيل عشرات الكتب النفيسة، التي يعجز عن شرائها كلّها، فقال له: خذْ ما استحسَنته منها وأنا أؤدي ثمنه،

---

[1]– روى ذلك العياشي في رحلته رغم أنّ أول عمله ومن معه بالمنطقة كان زيارة قبر الولي الصالح سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الراس. كما أنّ ابنَ مليح القيسي ذكرَ في رحلته سنة 1040هـ/1630م . قبل مجيء العياشي . أسماء بعض الفقهاء والأعلام المستقرين أو العابرين لتلك النواحي. مما يدلّ على تباين مواقف الرحالة اتجاه النشاط العلمي بالمناطق التي يمرون بها.

يُنظر: القيسي (ابن مليح)، المصدر السابق، ص 29.

[2]– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 79.

[3]– **محمد بن إسماعيل المسناوي** أعجوبة زمانه ونادرة وقته وأوانه، حصّل العديد من العلوم الشرعية وجال البلاد شرقاً وغرباً، من المغرب الأقصى إلى إفريقية وبلاد السودان، وأقام بمصر والحجاز واليمن والعراق وتركيا، حيث التقى العديد من المشائخ. ثمّ انتسب إلى الطريقة القادرية ودخل في جملة أتباعها، اشتهر بالسخاء والدهاء وعلوّ الهمة، لولا ما ابتُلي به من وسوسة الإمارة وادّعاء المهدوية.

يُنظر: محمد حجي، المرجع السابق، ج 04، ص 1456 / محمد بن عبد الكريم البكري التواتي: جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء الألف الثاني، مخطوط بالخزانة البكرية، تمنطيط، أدرار، ص 59 / محمد الصغير الإفراني: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ط 01، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء: 2004م، ص 221.

[4]– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 108.

فاشترى كتبا كثيرة متنوعة، ورجع بها إلى بلاده[1]. ولعلّ شهرة تلك المكتبة وتواتر أخبارها هو ما دفعَ بالعديد من الرحالة المغاربة إلى التكهّن حول مصير كتبها، وتتبّع آثارها، ونسبة كلّ مخطوط غريب نادر يقع بين أيديهم إليها. لكنّ الأمر المحيّر هو: لماذا أصرّ المسناوي على أن يُحملَ شخْصُه إلى المدينة المنورة؟ وتُحملَ معه أيضاً كتبُه؟!

ج . محطة الزيبان.. مصنّفات وأعلام:

لا تختلف حواضر الصحراء الشمالية عن نظيراتها السابقة، من حيثُ احتواؤها على مواطن العلم والطلبة، وغِناها بالتآليف والمنسوخات. فهذا الهلالي السجلماسي يُنبيء عن أحوال منطقة عين ماضي وكثرة طلبتها[2]، ويسمي قراءاتهم قائلاً[3]".. وأهل هذه القرية كثير منهم يحفظون القرآن، ويقرؤون مختصر الشيخ خليل، ورسالة ابن أبي زيد، وصغرى السنوسي، وكتاب ابن أبي جمرة في الحديث، ويسردون تفسيري الثعالبي والخازن.. ولا يرحلون للعلم بل يقنعون بما عندهم، ويأخذ بعضهم عن بعض". ورغم اعترافه بكتابتهم للشعر، وبأنّه يسيل عندهم كالوادي، إلاّ أنه أعابَ عليهم . في المقابل . نظمَهم له دون ضوابط لغوية، واعتبر علم النحو في هذه النواحي أغرب من العنقاء[4]؟!

والأمر ذاته في مدن الزيبان وزواياها الكثيرة، حيث أبدى الرحالة المغاربة إعجابهم بمدارسها وجوامعها. يقول ابن ناصر الدرعي عن منطقة أولاد جلال . بعد أن سمّى نفراً من علمائها . في رحلته 1121هـ/1709م[5]".. وقرية أولاد جلال من أكبر قرى الزاب، وهي قرية جامعة فيها مدرسة للطلبة المهاجرين، وهم يسمون الغرباء مهاجرين..". وبما أن الفقه وعلومه هو السائد بها فقد كان للفقيه سيدي محمد بن سعيد شأن ومكانة، غير أن الرحالة الأديب السجلماسي . على عادته . يسأل عمّن يجيد علوم اللغة بعد أن أخبره الفقيه المذكور بأنهم يقرؤون المختصر الفقهي، ولا يشتغلون بغير الفقه، فدلّوه على عالم لغوي يعرفها وغيرها من علوم الآلة..اسمه سيدي محمد بن المودع في بسكرة[6].

---

[1]– محمد الصغير الإفراني، المصدر السابق، ص 221.

[2]– تحدّث ابن ناصر الدرعي كذلك عن طلبة عين ماضي (بالأغواط) وعن كثرتهم وعما يقرءون قائلاً "..وعين الماضي أهلها كلهم طلبة علم، يقرءون خليل، وكبيرهم سيدي أحمد الدهصاء، وأولاده الثلاثة فقهاء.."

يُنظر: أحمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 19.

[3]– أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص 181.

[4]– المصدر نفسه، ص 184.

[5]– أحمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 23.

[6]– أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص 207.

وبسكرة هي قاعدة الزاب وحاضرته لقرون متوالية، اجتمع فيها الهلالي السجلماسي بالفقيه الأديب سيدي محمد بن المودع، الذي قرأ على فقيهين من تلامذة الخرشي والزرقاني، وألْفى أهلَ العلم منكبين على قراءة مختصر خليل وألفية ابن مالك[1]. وقد كان لجامعها الكبير الدور البارز في حفظ الكتب وإشاعتها بين الطلبة، وممّن وصفه وصفاً معبّراً ابن الطيب الشرقي في رحلته لسنة 1139هـ/1727م قائلاً[2]".. وتوجهنا يوم الجمعة إلى مسجدها الجامع، المزهو على ما عداه من الجوامع، المتقن البناء، المتسع الفِناء، وصعدتُ لمأذنته العظيمة البنيان، الشهيرة الإتقان بين الأعيان، الواسعة المدارج، حتى أن الجمل ليصعد بحمله من غير انحناء ولا اعوجاج في تلك المعارج..". أمّا الدرعي فقد أوجز مكانة هذه المدينة وعلومها في كلمات[3]" وبسكرة فيها علم كثير، وأهلها على مذهب أهل المدينة"، وذلك بعد أن استعرض أسماء ثلّة من العلماء الذين صادفهم، وبيّن الصلة الوثيقة بينهم وبين علماء المغرب، كما عرّج على نُتفٍ تاريخية من المصادر حول بسكرة.

ولعلّ جزءاً كبيراً من كتب مدينة بسكرة ومخطوطاتها المذكورة ترجع إلى العالم الشهير سيدي عبد الرحمن الأخضري[4]، صاحب التآليف العديدة، خاصة في البيان والمنطق، وفي الفرائض والحساب والفلك، وذلك ما أشار إليه أبو القاسم الزياني (1147هـ–1249هـ) في رحلته إلى الجزائر قائلاً[5]".. وهو سيدي عبد الرحمان الأخضري، صاحب المنظومة في المنطق المسماة بالسلم المرونق، وله منظومة في السلوك تشابه المباحث الأصلية، وله مقدمة في الفقه يتعاطاها أهل تلك البلاد".

د . مخطوطات وادي ريغ في ميزان العياشي:

يُعتبر أبو سالم العياشي أهم رحّالة أشار إلى بعضٍ من المخطوطات المتداولة في هذه المنطقة، نظراً لحرصه الكبير على السؤال عن مظانّها وخزائنها، فقد أدخَله إمام مسجد واركلا (ورقلة) إلى منزله، وأحضر له ما عنده من الكتب مثل: الموطأ والبخاري والإكمال للقاضي عياض، وبعض شرّاح المختصر والرسالة[6]، أمّا أمير البلد (واسمُه علاهم) فلم يبخل عليه البتة،

---

[1]– المصدر نفسه، ص 217.

[2]– أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي: الرحلة الحجازية، مخطوط بجامعة ليبزيك، فيينا، تحت رقم 746، ص 36.

[3]– أحمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 26.

[4]– يُنظر ترجمته في: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط 02، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت: 1980م، ص 14.

[5]– أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّاً وبحرا، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي، ط 02، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط: 1991م، ص 150.

[6]– أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 116.

ووجد العياشي في خزانته قرابة الأربعين سِفراً، منها التوضيح والتنائي وبهرام وحواشي على الصغرى...الخ[1].

وفي تكرت (تقرت) سُرَّ العياشي بمن لقي من العلماء، وفرح بترددهم عليه وتجاوبهم قائلاً[2]".. وأخذ مني سيدي محمد بن إبراهيم الكراسة التي جمعت في معاني لو الشرطية، والكراسة التي سميتها تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية. وأعطاني مجموعاً فيه عدة تآليف، اغتبطتُ به كثيراً، وقرأ علي سيدي محمد بن عبد الكريم شرح منظومة أبي الفرج الاشبيلي في ألقاب الحديث..".

04 . تفاعل الرحالة المغاربة مع التآليف والتصانيف:

يظهر من خلال النماذج العملية السابقة حرص الرحّالة المغاربة على تدوين كلّ ما يتعلّق بمستوى التحصيل العلمي في المناطق التي حلّوا بها، ومحاولات الاستفراد والاطّلاع على كلّ نادرٍ من الكتب والنسخ في الخزائن التي فتِّحتْ لهم أبوابها. فقد استغرب الهلالي السجلماسي وجود كتاب "تيسير الوصول على جامع الأصول من حديث الرسول . صلى الله عليه وسلم ." في بلاد المغرب قاطبة، ومؤلفه الشيخ عبد الرحمن بن علي ابن الديبع الشيباني محدّث الديار اليمنية، لكنه أدرك لاحقاً مصدره، وهو مكتبة المسناوي سالفة الذكر، وقد كان عنده نسختان فقط من هذا الكتاب[3]. أمّا العياشي فكان حريصاً . كما رأينا سابقاً. على الاستقرار في كلّ بلد يأمل في أن يُمكَّن له من خزائن كتبه، بل تجده يسأل دون نصَبٍ أو ملل خاصةَ البلد وعامتَها[4]، ويلجأ إلى المدح والإطناب عرفاناً لذلك، وقد استفاد من بعضها في تمهيد فصول وتحرير أصول.

ومن باب الإنصاف فإنّ الكثير من هؤولاء الرحالة عملوا . في المقابل . على كشف بعض الأخطاء والمغالطات والتحريفات، وساهموا بعلومهم وكراريسهم ورسائلهم في دفع الحركية العلمية بالمنطقة، فكانت الغاية واحدة، والمنفعة مشتركة. ذكر أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته أنّ

---

[1]– يظهر اهتمام هذا الأمير بالكتب والكتابة حين طلب من العياشي أن يكتب له شيئاً في ما دارَ بينهما من مسائل، فكتبَ له ومدحه قائلاً:

فإن ولاةَ الأمر في كل بلدةٍ ... كثير ولكنَّ الأمير علاَهُمُ

علاَهم علاَهم إذ تحلو بحليةٍ ... من العدل والممدوح رقم حلاَهُمُ

يُنظر: أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، ص 117.

[2]– المصدر نفسه، ص 121.

[3]– أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص 144.

[4]– يظهر ذلك في عديد الحالات، منها "ولما كان آخر أيام الإقامة سألتُ صاحبنا إمام المسجد هل في البلد شيء من خزائن الكتب.."

يُنظر: أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص 117.

طلبة عين ماضي طلبوا منه أن يتركَ لهم نسخة الغنيمة (غنيمة العبد المنيب في التوسّل بالصلاة على النبي الحبيب) التي ألّفها والده محمد بن ناصر الدرعي، لينسخوها وتعمَّ الفائدة بها[1]. وأُعجب الهلالي السجلماسي بكتابٍ مهم قرأه بخزانة القنادسة، التي ظلّ بها وبات، ولفتَ انتباهَه لغزٌ شعري ظريف على ظهر الكتاب مضمونه[2]:

أيّ شيء إذا تفكرتَ فيـه تمَّ معناه حين تنقص حرفا
هو حلو وإن نفى البعض منه عادَ مراً ولم يكن قطّ يخفى
رُمْت عكس اسمه فصار جلياً بيّناً ثم زاده العكس كشفا

05 . واقع الخزائن والحواضر الصحراوية التي حلّ بها الرحّالة المغاربة:

لقد حظيت العديد من الخزائن والمكتبات في قرى الصحراء الجزائرية وحواضرها . في ما مضى من القرون . بالعناية والاهتمام من قِبلِ الرحالة المغاربة، ودوّنوا ذلك في رحلاتهم ومسودّاتهم، لأنهم أدركوا قيمتها وأفادوا من مكنوناتها، فاشتهرت مدن وقرى بفضل ذلك وذاع صيتها داخل الوطن وخارجه، وظلّت حواضر: ورقلة وبسكرة وسيدي خالد وتيقورارين وتوات الوسطى وعين ماضي والساورة وغيرها قبلةً لطلبة العلوم ومريدي المعارف إلى يومنا هذا.

غير أنّ ما يؤسف له هو انحسار دور تلك الخزائن والمكتبات مع مرور الزمن، وتملّصها من مقاصدها النبيلة التي وضِعتْ لها، فأضحت حاضرة غائبة في آن واحد، ليس لها من حظ العلم سوى الاسم. وصدقت نبوءة الهلالي السجلماسي حين قال [3]"..وقد طالَ عليها سالفُ الأبد، وأخنى عليها الذي أخنى على لبد، إذ ليس هناك من تعاطى العلم سبد ولا لبد، فبقيت مخزونة كأنها كنز شحيح، حتى أضحى سقيماً منها كلُّ صحيح، وأيّ فائدة للكتب لا تجد من ينفض عنها الغبار؟! كأنّها أموات صُرعتْ بلا إقبار.

ذهب الزمان بصفوة العلما وبقيت في ظلم وفي عميا "

الخاتمة:

أمَا وقد طُفنا على مواطن تلك المخطوطات من دفاترَ وكتبٍ وكراسات ورسائل وغيرها، وقد زهَتْ بها بلادنا في القرون الخوالي، وأدركنا ما متّلّته من قيم ومزايا متنوعة للقاطنين والمرتحلين على السواء، فإنه يحقّ لنا أن نتساءل اليوم: ألمْ يحِن الوقت بعد لكي تخرج تلك الدرر والجواهر العلمية الثمينة من رمسِها، وتُطلَق عاجلاً من حبسِها؟ ورحم الله الشيخَ أبا الحسن علي بن محمد

[1]– أحمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 19.
[2]– أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص 139.
[3]– المصدر نفسه، ص 154.

بن ثابت الخولاني المعروف بالحداد المهدوي (ت485هـ/1093م)، وقد فقهَ قيمة الدفاتر فأنشدَ بلسانه ولسانِ حالنا[1]:

قالتْ وأبدَتْ صفحةً كالشمسِ من تحت القِناعِ
بِعتَ الدفاترَ وهي آخرُ ما يُباع من المتاعِ
فأجبتُها ويدي على كبِدي وهمَّتْ بانصِداعِ
لا تعجبي فيما رأيتِ فنحن في زمنِ الضّياعِ

المصادر والمراجع:

1. الإدريسي الطاهري مولاي أحمد: نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، ط 02، مداد للطباعة والنشر، غارداية: 2012م.
2. الإفراني محمد الصغير: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ط 01، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء: 2004م.
3. البكري التواتي محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء الألف الثاني، مخطوط بالخزانة البكرية، تمنطيط، أدرار.
4. الدرعي أحمد بن ناصر: الرحلة الناصرية، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم: 1954.
5. الزياني أبو القاسم: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برّاً وبحرا، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي، ط 02، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط: 1991م.
6. العياشي أبو سالم: الرحلة العياشية (ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ج 01، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي: 2006م.
7. القدوري عبد المجيد: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط: 1991م.
8. القيسي (ابن مليح)أبو عبد الله محمد بن أحمد: أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعارب، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس: 1970م.
9. سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 02، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1998م.
10. الشرقي الفاسي أبو عبد الله محمد بن الطيب: الرحلة الحجازية، مخطوط بجامعة ليبزيك، فيينا، تحت رقم 746.

[1]– ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 05، دار صادر، بيروت: 1977م، ص 232.

11. الهلالي السجلماسي أبو العباس أحمد: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة: 2012م.
12. ابن منظور: لسان العرب، ج 05، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة.
13. الحموي ياقوت: معجم البلدان، ج 05، دار صادر، بيروت: 1977م.
14. حجي محمد: موسوعة أعلام المغرب، ج 04، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1996م.
15. نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط 02، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت: 1980م.
16. أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء ، ط 01، مراجعة وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرّامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس: 1999م.

الملاحق

الصفحة الأولى من رحلة ابن ناصر الدرعي سنة 1121هـ/1709م

الصفحة الأولى من جواب ابن أبي محلي على قاضي تيقورارين بتاريخ 1005هـ/1596م

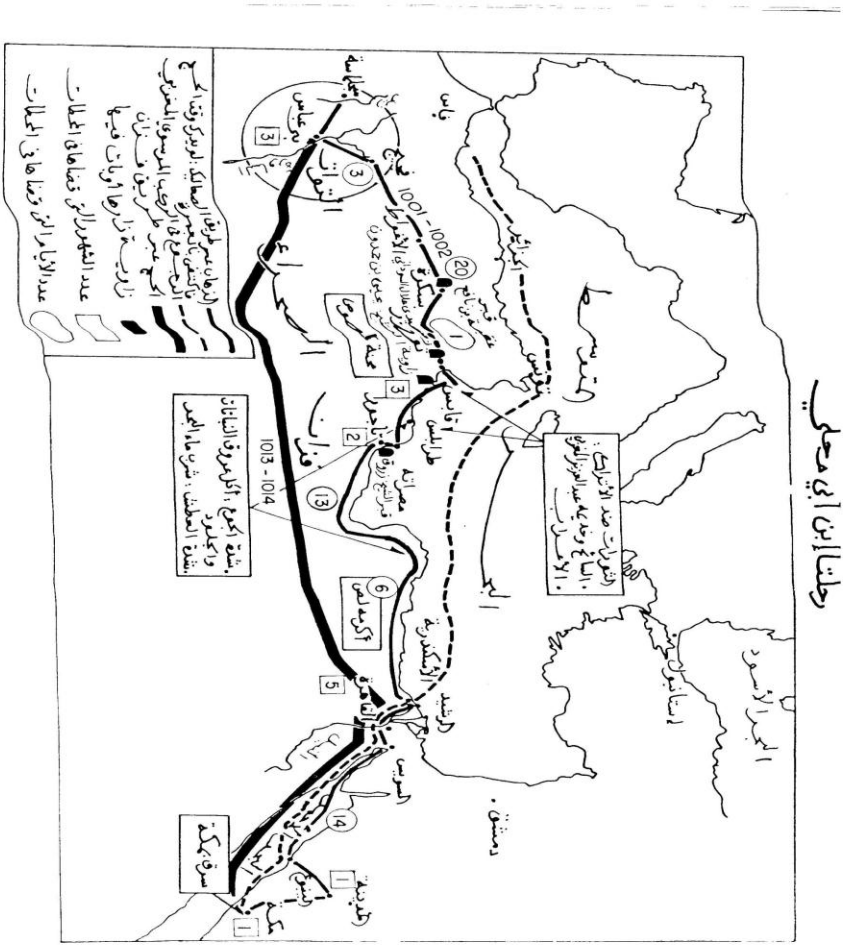

100

مسار رحلة ابن محلي السجلماسي 1014هـ/1605م (المصدر: عبد المجيد القدوري)